(عالمنا المجنون)

ألف هذا الكتاب الفيلسوف برتراند راسل..

وترجمة الدكتور نظمى لوقا

أشد ما يزعج الفيلسوف «برتراندراسل»: التعصب

وهو يرى أن صفحة الغرب بعامه، فى سجل التعصب أحلك سوادا من صفحة الشرق من أدناه إلى أقصاه، فلئن ادعى الغرب لنفسه قيما يتفاخر بها فليست هى قيم الأخلاق من سماحة ورحمة ومودة وإنما هى فى البحث العلمي والفنية العلمية. ولا يذهبن الظن إلى أن آفة التعصب قد انقضى عهدها من الغرب فى هذا الزمان.

وعنده أن وسيلة العلاج تتمثل فى ثلاثة أشياء:

أولها الاستقرار وثانيها الرخاء وثالثها التربية السمحة الحرة.

فظاهرة عدم الاستقرار تسود العالم أجمع فى الوقت الحاضر فى ظل القنابل الهيدروجينية والحرب الجرثومية مما يكرب الأنفاس وتضيق به الناس فيدفعها إلى التعصب الذى يزيد وطأة الخطر بدلا من أن يخففها!

أما الرخاء فيجب بقدر الإمكان أن يعم الجميع.

أما التربية السمحة الحرة فأصعب المطالب الثلاثة وأهم ما يجب أن تعنى به هذه التربية، فى نظره، هو الابتعاد عن كل ما ينمى روح الكراهية ويغرس فى الناس تجميد مذاهب دولتهم تجميدا أعمى.. ويجب ألا نعلمهم مبررات القضاء على الأعداء.. بل نعلمهم بكل حماسة وقوة ما وراء نشوب الحرب العالمية من كارثة على الحضارة، وعلى جنسنا البشرى المسكين يستوى فى ذلك الفريق الغالب والمغلوب.

إنها آمال جديدة فى عالم سعيد كما يقول عنوان ذلك الفصل

وفى فصل (نحن.. والحب) يقول ان الحيـاة يجب أن تتشبع بالحب.. ومن منا لا يتمنى هذا.. ويتساءل ما هى قيمة الحب فى حياة الإنسان؟ وهو يقصد بالطبع فى عالمنا المجنون.. بدليل قوله فى محاولة إجابة على السؤال المطروح، إن هذه القيمة لو استهدفت الامتلاك فحسب فهى عبث لا طائل من ورائه. ذلك أن الحب الحق هو المشاركة فى الميول والرغبات، وإحساس المحب بأن ذات المحبوب لا تقل فى أهميتها عن ذاته هو. ومما يدعو إلى الأسف أن مجتمعنا المعاصر.. بما فيه من صراع وتطاحن، لم يعد تربة صالحة لمثل هذا اللون من الحب، ذلك أن التنافس والتناقض طغيا على العواطف الإنسانية حتى كادت أن تختنق وتختفى من الوجود.

ثم أخذ يتكلم عن «الحب العذرى» الذى انتهى بالعصر الوسيط وبزغ فجر النهضة وانسلخت عن الحب صبغته الأفلاطونية وإن بقيت له صبغته الشعرية الشاعرية..

ومن الطريف أنه بلغ من لزوم التعبير الشعرى كما يقول، عن عاطفة الحب فى عصر النهضة أن كان العاشق الذى لا يفتح الله عليه بقصيدة عصماء يبث بها محبوبته هواه، يستأجر شاعرا لهذا الغرض. وكان من الشعراء من يحترف ذلك النظم بأجر معين يتقاضاه عن كل بيت من بيوت الشعر!

وأعتقد إن صح هذا فهو فى أوربا.. لقد درست الأدب العربى فى جميع عصوره ومراحله فلم أعرف أن أحدا منا استأجر شاعرا يتغزل، له أو عنه بالأجر!!

ويقول راسل وعلى وجهه مسحة غضب- أتخيل هذا فأنا لم أره بالطبع- (انتهت الحاجة إلى الأسلوب الشعرى فى الغزل، واستعمل الرجال وسائل أخرى لاقتناص قلوب النساء، وما من شك فى أن سهولة منال المحبوبة فى عصرنا هذا الحديث قد أثرت فى الشعر والفن والموسيقى تأثيرا هادما).

ومن الطريف أنه ينصح أن الموقف المناسب الذى يجب أن تقفه المرأة لازدهار الشعر والفن، أن تكون عسيرة المنال، ولكن فى غير استحالة تورث اليأس.

وهنا يترحم على الشاعر «شيلى» فإنه حينما كان قلبه يخفق بالحب كان يصب عواطفه كلها فى قالب شعرى جميل رائع.. لأن محبوبته كانت تضن عليه بالوصال.. ولو أن تلك المحبوبة الفاتنة البائسة «اميليا فيفانى» لم تحمل إلى الدير قسرا كى يحول أهلوها بينها وبين حبيبها الشاعر

لما ظفر الأدب بتلك الرائعات الفذة من شعر الغزل والنسيب التى أبدعها شيلى تحت عنوان «أبيسيكيديون»

وفى فصل (نحن والزواج) يستهله استهلالا طريفا قائلا إن المزارع الكبرى تفخر دائما بالنتاج الحيوانى المتحسن الذى تزخر به.. وأنت وأنا وكل من يعبرون بثور فحل أو بقرة حلوب مسمنة، يبدى إعجابه وارتياحه، ثم يكتفى بهذا الإعجاب، وهذا الارتياح.. بيد أننا لم نفكر ولو مرة واحدة فى أن نعامل أنفسنا بالمثل!!

إننا نعنى بتحسين نتاج الخيول والأبقار، فهل فكرنا فى تحسين النسل الإنسانى..؟

ويتحسر «راسل» على أن الآباء الممتازين لا يجدون التشجيع اللازم على كثرة إنجاب الأولاد.. فالطفل الموهوب يستمر غالبا فى الدراسة حتى يتم علومه الجامعية، ثم يتحتم عليه بحكم ظروف عمله العقلى ألا يتزوج قبل بلوغه الثلاثين أو الأربعين من عمره، فى حين أن التلميذ المتخلف فى تعليمه يختصر الطريق فيشتغل بعمل ما فى سن العشرين أو قبلها، وسرعان ما يتزوج ويملأ الدنيا أطفالا قبل أن يبدأ زميله النابه فى إنجاب طفله الأول.

يضاف إلى هذا أن مصروفات التربية الجيدة فى الأوساط المثقفة باهظة، ولهذا يحدد المثقفون نسلهم ليتمكنوا من مواجهة واجبات الأبوة.

أما الطبقات الدنيا فلا تلقى إلى ذلك بالا.. فتكون النتيجة كثرة نسل الآباء العاديين، ومن هم دون العاديين عقليا، فى حين يقل نسل الآباء الممتازين عقليا، رغم أنهم أقدر الناس على توريث أبنائهم الصفات الممتازة، وتربيتهم تربية خلاقة تساعدهم على التفتح وإظهار النبوغ.

وهنا يدعو الفيلسوف «راسل» دعوة جديدة:

إنى أرى أن نشجع المثقفين على النسل وذلك بأن نضمن لأولادهم مجانية التعليم فى كل مراحله حتى الجامعة، وبعبارة أخرى منح المساعدات التعليمية لا حسب اجتهاد الطالب فقط كما هو الحال الآن، وإنما حسب تفوق الوالدين العقلى.. ذلك أن الطريقة المتبعة حاليا ترهق الأولاد بعمل دائب يتلف صحتهم قبل سن العشرين، طمعا فى المنح الدراسية.

ويصور «راسل» الشد والجذب بين القائلين بالوراثة والقائلين بعامل البيئة والتربية. وهو يؤيد أن الملكة الفطرية التى يولد بها الإنسان، أو بعبارة أخرى يرثها، هى العامل الحاسم فى ارتقاء النوع

ارتقاء فذا فمهما تعلم الطفل العادى الرياضة مثلا فلن يغدو اينشتاين.. ومهما تعلم من موسيقى فلن يصبح شبيها بموتسارت أو بتهوفن.

ويعود «راسل» إلى الموضوع مرة أخرى فى فصل:

(مستقبل التربية) فيقول إن الغالبية الكبرى يولدون بغير موهبة فطرية بارزة على الإطلاق.. وحيثما ضربت جذور نظرة المساواة الفطرية وتأصلت النفوس وجدنا الأغلبية العامية تقاوم فى حسد ولدد أى امتياز خاص للأقلية الموهوبة.. ويضرب لذلك مثلا الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يظهر المعلمون شيئا من العداء للتلاميذ الذين يتميزون عن سائر القطيع اللهم إلا أن يكون امتيازهم فى الألعاب البدنية فذلك هو الامتياز المغتفر بل المقدر.. ولئن لم يكن هذا هو التيار السائد فى بريطانيا إلا أن من ينادون بعزل الأطفال المتفوقين عن غيرهم لتعليمهم تعليما مناسبا لملكاتهم يرمون بعدم الديمقراطية..

ومن المسلم به أن الفصل المتفاوت الكفايات العقلية يجعل المعلم بين شقى الرحى.. فإما أن يبطىء كثيرا بالمتفوقين، أو يسرع كثيراً فيعنف بالمتخلفين ويسئم الأذكياء بتكرار أوليات قتلوها فهما. فمن الوجهة التربوية يحسن كثيرا أن يعلم المتفوقون على حدة.

وينقد «راسل» التخصص الضيق المحدود (فإن من يتعلمون هذا النحو المحدود من التعليم خليقون أن تخلو نفوسهم من حكمة الحياة التى هى ثمرة الثقافة الرحيبة الآفاق المتعددة الموارد. فالمتعلم للهندسة حيوان هندسى وكفى وللكيمياء، حيوان كيمائى فحسب- لا أوافق الرسل فى هذه الجزئية لقسوة التعبير- فالإنسان بمعنى الإنسان هو الحيوان الناطق أى المدرك المفكر الواعى للوجود من كافة آفاقه.

- يبدو أن كلمة حيوان عند راسل، التزام علمى بالاصطلاحات..-

إنه مما لاشك فيه أن العقل المزود بثقافة أدبية عظيمة وبموسيقى عظيمة، وبفهم للتاريخ مستنير، حرى أن يحظى بنهج من الثبات والنضوج وقدرة على الصمود لمشكلات العصر العاتية، وذلك أمر لا سبيل إليه لدى من كانت كل طاقته العقلية مركزة فى دائرة ضيقة يسمونها مادة للاختصاص.

ويتحدث «راسل» عن فن الفراغ الذى لا يكون إلا ثمرة للمدنيـة الناضجة والتربية القويمة.. فالـرجل الذى ظل طول حيـاته إلى أن شاخ يعـمل ساعـات تزيد على العشـر كل يوم، لاشك أنه يضيق بنفسه وحياته إذا وجد نفسه فجأة وقد فرغ من كل عمل.

فالحكمة توجب رياضة النفس منذ فجر العمر على حسن استخدام الفراغ والاستمتاع به.

وليس معنى العمل، الارهاق فعند هذه الحافة يتردى الأداء وهنا يسخر من الغرب

إن الحل الذى نلجـأ إليه فى مثل هـذه الحالة فى عالمنا الـغربى، هو الحل الأحمق.. فـلا نقلل ساعات العمل، بل نتلافى تعطل جانب من العمال بتـوجيههم إلى صناعة السلاح والمفرقعات، ثم نوجه فريقـا آخر إلى استعمـال ذلك السلاح وتفجير تلك المفـرقعات، وكأن المسألة لعـبة صواريخ بريئة مما يتلهى به الأطفال.. وهذه بالاختصار هى طريقة الحرب!

أما فى روسـيا فيغلب عـلى ظنى أنهم سيفكرون باسـتمرار فى مشـروعات جديدة، تسـتنفد المتعطل من قدراتهم على العـمل كأن يذيبوا ثلوج القطب ويكيفوا هواءه بحيث تغـدو سيبريا بلدا لطيف المناخ الى غير ذلك من المشروعـات الجسيمة التى لا تدعو الحاجـة إليها فى ذاتها.. وإنما هى وسيلة إلى خلق العمل بأى شكل من الأشكال.

وهكذا سخر برتراندراسل من الغرب وروسيا معا.

المسألة ليست الـعمل أو صعوبة العمل أو أن يكون شـاقا فلو صح ذلك لكان أتفه عتـال كما يقول أفضل من شكسبير.

***

وراسل لقنته طفولته درسا يجب علينا، بدورنا، أن نعيه

لم أولد سعيـدا بل كان شعارى المأثور فى طفـولتى قول الشاعر -أعيـتنى الأرض وأرهقتنى آثامى.

أما الآن وقد تقدمت فى السن فأنا على العكس أحب الحياة، وأستمتع بها. بل أجسر أن أقول إن كل عـام يمر يزيد من اسـتمتـاعى بالحياة.. وذلك راجع أولا إلى أننى اكـتشـفت بين أسـباب

التعاسة وأعاصيرها ما هى الأشياء التى أريدها حقا ثم سعيدت إلى اكتساب الكثير منها.. وهو راجع ثانيا إلى نجاحى فى التخلص من سلطان رغبات معينة اكتشفت أنه لا سبيل إلى تحقيقها.

ثالثا وعلى الأكثر إلى تقليلى من الانشغال بذاتى.

الخلاصة أن السعيد من يجعل له فى حياته هدفا يسعى إلى تحقيقه فإذا تحقق، تطلع إلى هدف جديد.

أما اهتمام الفرد بذاته فلا يثير كما يقول راسل أى نشاط ايجابى وإن كان يؤدى أحيانا لكتابة المذكرات اليومية الخاصة أو اللجوء إلى محلل نفسانى.. أو ربما الرهبنة.

وهناك أنواع كثيرة من مرضى الانحصار الذاتى. وأشيع هذه الأنواع: الأثيم.. والنرجسى.. والمريض بالعظمة.

أقف، قليلا، عند مريض العظمة باعتباره النموذج الشائع فى الشرق الأدنى..

وجنون العظمة هو جنوح السلطة أو حب السلطة.

والغالب أن مجنون العظمة، كما يقول «راسل» سواء كان مخبولا، أو سليم العقل، مدفوع إلى ذلك بإحساس قديم بالهوان الشديد. فنابليون كان يعانى فى المدرسة من الشعور بالدونية بين زملائه الأثرياء الارستقراطيين فى حين كان هو فقيرا يتعلم على حساب منحة دراسية فلما سمح بعودة المهاجرين، كان يهدف بذلك إلى التمتع بمرأى زملائه السابقين يركعون أمامه. ويالها من نشوة فى نظره بيد أنها أدت إلى رغبة أكبر، أن يرى قيصر روسيا ينحنى أمامه كذلك وهى الرغبة الأخيرة هى التى أدت به إلى سانت هيلانه.

***

و «راسل» يحب الحب

فهو عنده مصدر للسرور.. ليس هذا فحسب بل إن غيابه أيضا مصدر ألم.

الميزان الثانى لقيمة الحب أنه يرهف إحساسنا بالمسرات الأخرى مثل الموسيقى الرفيعة، وشروق الشمس فى الجبال، ومنظر البحر فى ضوء البدر المكتمل فى ليالى الربيع والصيف.. فالرجل الذى لم يتمتع بهذه المفاتن فى صحبة امرأة يحبها، رجل لم يذق طعم تلك القوة السحرية التى فى المناظر الجميلة على أكمل وجه.

والميزان الثالث لقيمة الحب أنه قادر على تحطيم القوقعة الصلبة التي تحيط بذات الفرد.

إنه نعمة نادرة وهو فى أسمى صوره يكشف لنا أنواعا من القيم كانت لاشك تبقى مجهولة لولاه وهذه الأشياء لا يمكن أن يسخر منها أشد الناس جحودا..

الحب الصادق نار مشبوبة لا تخمد

فى العقل تضطرم شعلتها

لا تخفت، ولا تموت، ولا تبرد

ولا تتحول عن ذاتها أبدا

ولأن «راسل» يحب الحياة بطيباتهاوطيوبها ولهذا يرسم «لرجل الأعمال» صورة ساخرة، وإن كانت لا تخلو من إشفاق.

إن الحياة العاملة لهذا الرجل أشبه بسباق المائة ياردة فى عنفه واندفاعه.. مع فرق واحد أن سباق رجل الأعمال ليست له نهاية بعد مائة ياردة.. وإنما حبل النهاية هو فوهة القبر. ولئن كان هذا التركيز محتملا مدى مائة ياردة، فهو فى حالة رجل الأعمال أداة تعذيب مستمرة.

ما الذى يعرفه عن أولاده؟ لا شيء

ما الذى يعرفه عن زوجته؟ إنه يتركها فى الصباح نائمة.. وفى السهرات يكونان فى أوساط اجتماعية تمنعهما من تبادل الأحاديث القبلية.

والأصدقاء؟ إنه فى الغالب ليس له أصدقاء يهمه أمرهم بل معارف يتظاهر بالتعلق بهم.

وأما الربيع والحقول والطبيعة فلا يعرف عنها ولا يهتم بها إلا بقدر تأثيرها فى أسعار السوق.

وكذلك البلاد الأجنبية لا يهمه منها إلا أثرها فى السوق على كثرة أسفاره وتنقله.

وأما الموسيقى والكتب فإنها مسائل تافهة.

وهنا ينحو «راسل» على الأمريكيين باللائمة وتجتاحهم سخريته المعهودة.. كسائر الانجليز بخاصة والأوربيين بعامة.

فباعتبارهم رجال مال وأعمال فى هذا العصر يرى «راسل» فى واحدهم أو فى جمعهم كلاب مال.. بل الأمريكى له فى المال مأرب آخر هو مزيد من المال أيضا.. مال يصنع مالا بغير توقف، كى يتمكن من التغطية بجاهه وثرائه على سائر نظرائه.. وهذا ما يجعل المجتمع الأمريكى متقلب الطبقات.. فالداخلون فى طبقة يبدو عليهم دائما القلق.. والمقياس السائد هناك أن المال هو ميزان كل شيء، حتى العقليات! فالرجل الذى يحصل على ثروة كبيرة هو الرجل البارع الذكى.. ومن فشل فى الإثراء فليس له حظ من الذكاء والبراعة.. وما من إنسان يجب أن يوصف بالغباء والبلاهة، وهذا هو السبب فى أن جميع الأمريكيين معلقة قلوبهم بالبورصة. فكأنهم تلاميذ فى فترة امتحان.. يكرم فيها المرء أو يهان.

ومن لعنات المال على الرجل الحديث- الذى يمثله الأمريكان، عن «راسل»، أن الخوف من الإفلاس يزعجهم دائما مهما كانوا أغنياء وكانت مراكزهم ثابتة.. ذلك لان من جمع الملايين من لا شيء يفزعه دائما احتمال رجوعه إلى نقطة البداية.. ولهذا يندفع فى إقامة متاريس جديدة من الملايين يحصن بها بابه من الفقر.

***

ومن طرائف «راسل» نظرته إلى السأم وإلى الحسد وإلى التناظر

أما السأم فهو يعتقد أن السأم عامل له تأثير هام فى السلوك الإنسانى.. وأن هذا العامل لم يحظ بما هو أهل له من الاهتمام فهو فى اعتقاده من أهم القوى الدافعة فى تاريخ البشرية كله.. وهو اليوم أقوى تأثيرا من أى وقت مضى.

يقول «راسل»:

(يخيل إلى أن السأم حالة نفسية إنسانية.. فالحيوانات فيما يلوح لا تعرفه وراء قضبان الأقفاص.. أما فى بيئتها الطبيعية فهى مشغولة بالبرد أو الجوع أو مطاردة الأعداء أو الافلات منهم.

وليس فى ذلك كله ما يتيح السأم.. وكذلك الإنسان لا يشعر بالسأم إذا كان هناك ما يشغل نفسه ويستجيشها بأى شعور ولو كان الذعر.. فأظن أن من يتقدم لمنصة الإعدام لا يشعر بالسأم

وإلا لكان من جنس غير جنس البشر.. فالسأم فى جوهره عبارة عن افتقار إلى ما يحرك النفس أو يشغلها، سواء بالخير أو بالشر.. فنقيض السأم ليس السرور بالذات بل الجيشان عموما.

وإننا اليوم على العموم أقل تعرضا للسأم من أسلافنا ولكننا أتعس منهم حالا لأننا أخوف منهم أن يصيبنا السأم. هم تعودوه وراضوا أنفسهم عليه. أما نحن فنفزع منه.. فنحن من خوف السأم فى سأم.

***

وله فى الحسد نظرة تربوية.

إنه يرى الحسد من أقوى العوامل على الشقاء البشرى. ولابد من الاعتراف بأنه أيضا من أعمق وأكثر المشاعر البشرية شيوعا وانتشارا.. فمن المشاهد بسهولة أن الحسد يوجد فى الأطفال قبل أن يتموا العام الأول من عمرهم.. ولهذا يجب على كل مرب أو مربية وضع تلك الصفة موضع الاعتبار الشديد.

فأى مظهر من مظاهر المحاباة لطفل على حساب طفل آخر يفطن إليه الطفل المغبون ويحقد عليه.

فالعدل التام الشامل الدقيق المطلق الذى لا يلتوى ولا يتغير يجب أن يكون رائد كل من يتعامل مع الأطفال.

***

وأخيرا: التناظر.

فعنده أن عادة التفكير فى الأشياء على أساس مقارنتها بما لدى الناس منها، عادة مميتة.. مميتة للسعادة على الأقل فمن الواجب كلما حدث للمرء ما يسره أن يتمتع به كامل التمتع من غير أن يتوقف ليفكر فى أنه أقل بهجة ومدعاة للسرور مما أتيح لهذا الشخص أو ذاك.

إن الحاسد قد يجد يوما رائعا يشرح الصدر فيقول لنفسه:

- حقا إن اليوم مشرق جميل، والزهور يانعة، والطيور صادحة. ولكنى أعتقد أن هذا اليوم أحسن بكثير على شواطىء جزيرة صقلية، حيث يتمكن الثراة المتبطلون من الاستمتاع به.

ومجرد تفكيره بهذا الأسلوب كاف كي تبدو الشمس في نظره بعد إشراق، ويقع تغريد العصافير على أذنيه وقعا مقفرا.. وتبدو الأزهار المتفتحة غير أهل لاجتذاب الأنظار.

وعلى هذه الوتيرة تتسم كل نواحي الحياة لدى الحسود.

***

وهكذا نرى هذا الكتاب يشخص أدوار العصر ويطب لها.. بأجرأ علاج علمي فلسفي يتواءم مع ظروف الحياة التي نعيشها ولا أقول نحياها..

وكم بين من يعيش ومن يحيا.